الفصل الأول

مفهوم العقلانية في الفكر الغربي

إن الدارس المتفحص للفكر الفلسفي اليوم لا يتردد في الحكم بأن مفهوم العقلانية ليس هو وليد اليوم وإنما هو مفهوم قديم حديث: قديم لأن جذوره الفكرية كمحتوى تضرب في عمق تاريخ الفكر البشري، وحديث لأنه كمصطلح مذهبي ظهر إلى الوجود مع مطلع القرن السابع عشر الميلادي في أوروبا ليأخذ بعدها أبعادا مذهبية تعددت بتعدد الفلاسفة الأعلام الغربيين.

وأصل مصطلح العقلانية مأخوذ من كلمة لاتينية (ratio) أي (raison) وهو مقابل كلمة (عقل) في اللغة العربية وتعني في مدلول الفكر الفلسفي مظهراً من مظاهر التفكير الذي يشيد باستعمال العقل في المجال المعرفي على أساس أن الأفكار هي أفكار قبلية (A priori) أي مصدرها العقل ولا تأتينا من التجربة. أو قل، بصفة عامة مذهب يقرّ بوجود العقل ويصرح بأسبقيته وسلطته[1]. وهو مذهب يقابل في أغلب الأحيان بالنزعة التجريبية (Empirisme) التي تولي أهمية لدور التجربة وعلى وجه الخصوص للإدراك الحسي.. والواقع أن ضبط مفهوم العقلانية لدى كل مذهب جاء وفق الوظيفة المضبوطة والمتوقع أنها منوطة بالعقل والاستعداد الفكري الكامن في العقل والمناسب لتلك الوظيفة. من ذلك ما جاء ذكره في قاموس لالاند (Lalande) إذ نجده يقول : «[فالعقلانية] بالمعنى

(1) Voir: Foulquie P. et Saint Jean , Dictionnaire de la langue philosophique , P.U.f , Paris , 1962 , PP. 609-610.

الميتافيزيقي مذهب يرى أن لا وجود لأي شيء بلا موجد وذلك بطريقة منطقية إن لم يكن بطريقة واقعية فكل شيء قابل للفهم»[1].

ثم ينتقل بعدها (لالاند) ليوضح لنا أن المفهوم هذا قد يتفاوت ضبطه إذا ما نظر إليه من زاوية مصادر المعرفة. فمثلاً، إذا قوبلت العقلانية بالتجريبية (Empirisme) فهي: «مذهب يرى أن كل معرفة يقينية فهي تصدر عن مبادئ لا يمكن الاعتراض عليها، وقبلية وواضحة، وتكون هذه المعرفة لازمة عنها بالضرورة، وحيث الحواس لا يمكن لها أن تقدم سوى نظرة ملتبسة وظرفية عن الحقيقة»[2]. وهذه نظرة تتطابق والنظرة الديكارتية لمفهوم العقلانية مثلا.. أو هي: «مذهب يرى أن التجربة ليست ممكنة سوى لفكر يملك (...) نسقاً من المبادئ الكلية والضرورية ينظم بها المعطيات التجريبية»[3]. وهذه نظرة تتطابق مع النظرة الكانطية.

وأما من وجهة نظرة لاهوتية غربية فهي: «مذهب يرى أنه لا يجب الوثوق إلا في العقل (على أساس أنه نسق من المبادئ الكلية المنظمة) ولا يقبل في العقائد الدينية سوى ما كان منطقياً ومرضياً بالنسبة للإدراك الفطري»[4].

---

(1) Lalande A. , Voucabulaire technique et critique de la philosophie, P.U.F, Paris , 1968. P. 889.
Texte: « Au sens métaphysique doctrine d'après laquelle rien n'existe qui n'ait sa raison d'être de telle sorte qu'en droit, sinon en fait ».

(2) Ibid , P. 889. Texte: « Doctrine d'après laquelle toute connaissance certaine vient de principes irrécusables, a priori , évidents, dont elle est la conséquence nécessaire et, d'eux seuls les sens ne pouvant fournir qu'une vue confuse et provisoire de la vérité, il n 'est rien qui ne soit intelligible ».

(3) Ibid , P. 889. Texte: « Doctrine d'après laquelle l'expérience n'est pas possible que pour un esprit possédant (….) un système de principes universels et nécessaires organisant les données empiriques ».

(4) Ibid, P.889. Texte: « Doctrine d'après laquelle on ne doit se fier qu'a la raison (au sens C (c'est-à-dire un système de principes universels et nécessaires organisateurs.) et n'admettre dans les dogmes religieux que ceux quelle connaît pour logique et satisfaisant selon la lumière naturelle ».

و في الإطار نفسه، نجد الفيلسوف الفرنسي (لوسان) René Le Senne (1882-1954) يضبط لنا هذا المفهوم بعد أن ذكّرنا بأن أفضل طريقة نعرف بها محتوى مفهوم فلسفي ما هي أن نبحث عن المفهوم أو المفاهيم التي تضاده ونميّزه عنها – وهو يقصد مقابلة العقلانية بالنزعة التجريبية– فيقول: «العقلانية هي الفلسفة التي تؤسس العلم على أساس معرفة العلاقات الضرورية فيما بين الأفكار. وكل تقدم علمي فهو بالنسبة لها يمثل نجاحاً للعقل على المظاهر التجريبية والنزوات النفسية»[1]. ليقول بعدها بقليل : «فلم تعد التجربة هي التي تؤسس معرفة القوانين، إنه العقل أي القوانين هي التي تؤسس التجربة»[2].

وبناء على هذا التباين الذي قدمنا منه بعض النماذج، أجمع سواد المفكرين.

والباحثين، بالنظر إلى تاريخ الفكر، على أن الجذور التاريخية لمفهوم العقلانية كمحتوى تعود إلى الفكر الفلسفي اليوناني إذ بلغ أوجه قديماً مع الفيلسوف أرسطو الذي صار الفكر البشري من بعده يدين له بالكثير.

ومن هنا يمكن أن نقول إن العقلانية قد ظهرت في أشكال مختلفة في كل الحقب تقريبا، ومن ثم يمكن أيضا أن نطلق وصف العقلاني على أمثال كل من الفيلسوف أفلاطون أو الفيلسوف أرسطو أو الفلاسفة الرواقيين..الخ. وذلك لأن العقل الذي يسمح بربط الأفكار في إطار نسق برهاني مشترك بين جميع هؤلاء الفلاسفة.

(1) Le Senne R., Introduction à la philosophie, P.U.F, 5eme édit., Paris ,1970,P.27. Texte: « Le rationalisme est la philosophie qui fonde le savoir sur la connaissance des rapports nécessaires entre les idées. Chaque progrès du savoir est pour lui la victoire de la raison sur les apparences empiriques et les impulsions irréfléchies ».

(2) Ibid, P.29. Texte: « Ce n'est plus l'expérience qui fonde la connaissance des lois ,c'est la raison c'est-à-dire les lois qui fondent l'expérience »

وكما أجمع الباحثون على أن الجذور التاريخية لمفهوم العقلانية تعود إلى العهد اليوناني، فقد أجمعوا كذلك على أن هذا المفهوم، كمصطلح مذهبي، قد ظهر حديثا وميّز خاصة التيار الفلسفي الذي شيّد في القرن السابع عشر الميلادي من طرف الفيلسوف، أب الفلسفة الحديثة، ديكارت René Descartes (1596-1650م) وقام على أنقاض نقده للفكر الأرسطي نفسه.

و مع ذلك، فهناك من المؤرخين للفكر الفلسفي من يعيد تأسيس هذا المفهوم إلى مفكر سبق ديكارت بقليل وهو (مونتاني Montaigne 1533-1592م) ولو أن هذا الأخير يعدّ أديبا أكثر مما يعدّ فيلسوفا، فإنه كان له الفضل في بعث فكر ديكارت والتأثير فيه: «ولقد أوضح (ليون برونشفج Brunschvieg L (1869-1944م) في كتابه الرائع عن ديكارت وبسكال بوصفهما قارئين لمنتاني» تأثير (مونتاني) توضيحاً وافياً بحق. فعنده استعاد الوعي وعيه بنفسه، كما فعل من قبل عند سقراط. وقد أراد (مونتاني) أن يبيّن لنا الشكل الشامل للوضع الإنساني. ولقد كان في تأكيده لملكة الحكم (Le jugement) التي هي -على حدّ قوله - أعدل هبة منحتنا إياها الطبيعة، يعدّ أحد ممثلي النزعة العقلانية (Rationalisme) وبتساؤله المستمر يعدّ أحد ممثلي النزعة الشكية (scepticisme)» [1].

ولا ريب في أن ديكارت، رغم الفضل الذي كان لمونتاني أو لغيره عليه، يعدّ من أقطاب وباعثي الفكر الغربي الحديث ومؤسس المذهب العقلاني كفيلسوف في صورته الجلية.

---

(1) جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة د/فؤاد زكريا، الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968، ص4.مع تصرف في ضبط بعض المصطلحات المعرّبة.

وبنظرة عامة – سنفصل النظرة لاحقاً– فالعقلانية الديكارتية كان شغلها الأول هو كيف تجتنب شروح وتعليقات المدرسة السكولاستيكية أو الفلسفة المدرسية (scolastique) لأنها تعتقد أنه يجب على التفكير أن يكون حرا وأن يكون من طرف فاعل واحد.

ثم إن الرياضيات قدمت لديكارت الطريقة المناسبة للخطة العقلية بحكم أنها تمثل المثال لكل العلوم وذلك لأنها تطرح المسائل بطريقة واضحة وصريحة، وتمتلك المفاهيم والمبادئ التي بفضلها يمكن اكتشاف بعض الحقائق الكلية والواضحة، وتستخلص عن طريق الاستنباط (Déduction) مبادئ لا يمكن الطعن فيها أو الاعتراض عليها. والعقلانية الديكارتية تفترض أن الحقائق الضرورية هي حقائق فطرية وليست وليدة التجربة الحسية، ومع ذلك فالعقلانية الديكارتية لا تستبعد التجربة التي هي ضرورية للاستشعار بهده الأفكار الفطرية.

ثم تطور هذا المظهر العقلاني فيما بعد مع الفيلسوف سبينوزا (Spinoza B.) (1632-1677) وليبنيز (Leibniz G.W.) (1646-1716) خاصة. أما العقلانية الكانطية (نسبة إلى كانط (E. kant) (1724-1804) فهي قائمة على أساس النقد، النقد الثلاثي: نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي، ونقد ملكة الحكم. وغايتها في ذلك ضبط عملية التفكير كما تعتقد، وتحديد مجالات قدراتها أو تدخلها في الحقل المعرفي.

وأما بالنسبة إلى الفلسفة الهيجلية (نسبة إلى هيجل (Hegel G.W.F.) (1770-1831) فهي تتلخص في مقولته الشهيرة: «كل ما هو عقلي هو واقعي وكل ما هو واقعي فهو عقلي»[1]، وهذه الفلسفة تعد شكلا من أشكال العقلانية المطلقة.

---

(1) للتوسع أنظر: هيجل، فلسفة الحق –تمهيد–. نقلاً عن: Lalande A., Voucabulaire technique et critique de la philosophie, P. 890.

في حين نجد العقلانية الابستمولوجية تطبّقه في مجالات أخرى من البحث الفلسفي. في الأخلاق مثلا، تظهر في الطرح الذي يرى أن المبادئ الأخلاقية هي مبادئ فطرية في الإنسان وأن هذه المبادئ الأساسية الأولى هي ضرورية بالنسبة إلى الملكة العقلية. والأمر كذلك في علم اللاهوت الغربي، فالموقف العقلاني، في نظرهم، يدعم فكرة أن المبادئ الأساسية للدين هي مبادئ فطرية وضرورية وأن الوحي ليس ضروريا وهذا عكس المذهب الذي يدافع عنه المؤمنون بالإله دون الوحي (Déisme) وهو دين طبيعي يقوم على مجرد العقل أو الفطرة وقد ظهر في القرن 17هـ و18هـ في كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا، من رواده هاربرت E. Herbert (1583-1648) وتولند J.Toland (1670-1722) وبلونت C.Blount (1654-1693).[1]

والفلسفة الحديثة، عقب العقلانية الوضعية المنطقية التي تعتقد أن المعرفة تتلخص في مجموعة من القضايا المنطقية القائمة على أساس معطيات تجربية، لا يمكنها، من وجهة نظر عقلية، أبدا إبعاد دور التجربة من العمل المعرفي.و لعل هذا الذي كان وراء تقديم بعض الأطروحات التي كانت في طروحاتها أكثر مرونة بالنظر إلى طروحات الوضعية المنطقية منها أطروحات: كين W. Quine (1908-2000) وبوبر S. K. R. Poper (1902 - 1994) وغيرهم، ورأوا أن مجال الفلسفة هو الابستيمولوجيا.

وبعد هذه المسحة العامة والموجزة لفكرة العقلانية وتطورها في الغرب، رأينا أن نقدم، وكنموذج للفكر العقلاني الغربي، العقلانية الديكارتية بحكم أنها أساس الفلسفة الحديثة بإجماع الباحثين والنقاد ولاعتبارات فكرية أخرى ستتجلّى لاحقاً.

(1) Voir :Berthelot A., Hartwig D., Giry A.,La grande encyclopédie ,T6-19-30, Artibonite-Baillie, Paris, P.144 – 1157-1178.

يقول لوسان (R.Le Senne): «إن أهم ما يشغل الفيلسوف العقلاني هو أن يأتي بأفكاره مرتبة، متّبعا في ذلك عالم الرياضيات الذي يبدأ في عمله خطوة بعد خطوة، ينتقل فيه من البسيط إلى المركب ومن المباشر إلى غير المباشر من غير أن يفقد حلقة من حلقات تفكيره»[1].

لعل هذه الفكرة هي من أهم ما كان يشغل الفيلسوف والرياضي ديكارت. فقد سعى، معتمدا في ذلك على العقل وحده، إلى البحث عن الطريقة المثلى التي تمكنه من بلوغ الحقيقة خاصة وأنه اكتشف أن الطريقة الأرسطية طريقة عقيمة بحكم أن نتائجها دوما مصرح بها مسبقاً ولا تصلح لأن تعلمنا شيئاً جديداً، فكانت طريقة عالم الرياضيات، كبديل للطريقة الأرسطية، هي الطريقة التي اهتدى إليها. فطريقته واضحة مرتبة الحلقات

ومترابطة. غير أن الذي كان يؤرقه هو ضرورة العثور على بداية حلقة التفكير الفلسفي التي تؤسس وتعطي المشروعية للحقائق المتفرعة عنها؛ ومن ثم صار السؤال الجوهري الذي يبحث له ديكارت عن جواب هو: ما هو السبيل الذي يوصلنا إلى حقيقة تكون بمثابة قاعدة صلبة ثابتة تنبني عليها العلوم أو منطلقاً لا ينال منه الزمن ولا يدع مجالاً للشك تؤسس عليه المعرفة الحقة؟

وكانت البداية أن اكتشف ديكارت أولاً وحدة المعرفة التابعة لوحدة العقل الإنساني. فمع إنجاز كتابه الأول (قواعد لقيادة العقل) – وهو عمل لم ينهه– عام 1628م وكتابه «طريقة في المنهج من أجل قيادة أفضل للعقل والبحث عن الحقيقة في العلوم» عام 1637م، وقد كان متوقعاً أن يكون عنوانه: (مشروع علم كلي

(1) Le Senne R., Introduction à la philosophie, P. 31. Texte: « Le souci principale d'un philosophe rationaliste est de mener par ordre ses pensées suivant l'exemple du mathématicien qui procède pas à pas ,du simple au complexe, de l'immédiat à l'éloigné sans sauter aucun des anneaux de l'enchaînement».

يمكّن طبيعتنا من أن ترتفع إلى أعلى درجة من الكمال)، صرّح ديكارت بأن العقل الإنساني واحد وهو ملكة مشتركة بين جميع الناس ومن ثم فالمعرفة واحدة وذلك بالرغم من وجود تنوع في الأشياء التي هي موضوع لهذا العقل. ومن هنا فكل العلوم الناشئة حول الأشياء هي تابعة للعلم الأول. وهذا الذي أشار إليه في أحد كتابيه هذين حين قال إن: «الحاسة السليمة (أي العقل) هي أعدل قسمة بين الناس (...) فليس معقولا أن الكل يخطئ ؛بل هذا يشهد أن قوة الحكم السديد والمميّزة بين الصدق والكذب والتي نسميها الحاسة السليمة أو العقل هي بالطبع نفسها عند كل البشر»[1]. وهذا الحدس الأساسي الذي يربط بين الكتابين السالفي الذكر هو نفسه نجده يتكرر أو يتأكد في رسالة المدخل لكتابه (مبادئ الفلسفة) الذي صدر عام 1644م، وتم نقله إلى الفرنسية عام 1647م. وفيه يقدّم لنا ديكارت الفلسفة كشجرة تمثل الجذور فيها الميتافيزقيا والجذع يمثل الفزياء وتمثل الفروع باقي العلوم التي اختزلها في ثلاثة علوم أساسية وهي: الطب والميكانيكا والأخلاق. وهذا المخطط للفلسفة يعكس من دون شك النظرة الديكارتية لمصدر حصول المعرفة الحقة وتطوراتها.

وبعد أن تأكد ديكارت من «القسمة العادلة» انتقل بنا من خلال كتبه، وبعقل ثابت ومتأن إلى كشف ثان وهو «الطريقة في المنهج» التي جاءت كبديل للمنطق الأرسطي بعد أن وجد أن هذا الأخير هو مجرد منطق عقيم.

---

(1) Descartes R. , Discours de la méthode, suivis de: les passions de l'âme ,booking international 1995,Paris,P. 15.
Texte: « Le bon sens est la chose du monde la mieux partagée. (…) il n'est pas vraissemblable que tous se trempent, mais plutôt cela témoigne que la puissance de bien juger, et distinguer le vrai d'avec le faux ,qui est proprement ce qu' on nomme le bon sens ,ou la raison ,est naturellement égale en tous les hommes ».

لقد تبيّن له أن كشف الحقيقة في العلوم مشروط بمراعاة «القواعد الأكيدة»: «لأنه لا يكفي أن نملك فكراً جيداً ولكن المهم توظيفه بكيفية جيدة»[1].

ولما درس ديكارت في شبابه علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات – وقد اعتقد أنها هي التي ساهمت في وضح مخططه– أدرك بعقله الناقد أنه بالنسبة للمنطق مثلاً: «جميع أقيسته والأكثر من باقي تعاليمه تصلح فقط لأن تشرح للآخرين الأشياء التي كانوا يعرفون من قبل، أو حتى، كفن (لول) Lulle مثلاً، أنها تتحدث عن تلك التي نجهل من غير أن تحكم عليها، بدلا من أن تعلمهم إياها»[2].

ومن هنا حاول ديكارت، كما يذكر في كتابه (طريقة في المنهج)، أن يبحث عن طريقة أخرى تجمع محاسن طرق هذه العلوم الثلاث دون مساوئها، وأحسنها طريقة ما اشتملت على أقل القواعد. وكما أن كثرة القوانين في الدولة تساعد في أغلب الأحيان على خلق الأعذار لمن يبحث عنها، فالدولة الأكثر تنظيما إذن هي الأقل قوانين، لأن القليل منها يسهل مراقبته ومن ثم يقول ديكارت: «فبدلاً من هذا العدد الهائل من التعاليم التي تكوّن هذا المنطق [الأرسطي] أعتقد بأنه يمكن أن أكتفي بالقواعد الأربعة الآتية، المهم هو أن يكون لي حزم صارم ودائم لا يجعلني أغفل عنها ولو مرة واحدة [سيأتي ذكر القواعد في حينها]»[3].

---

(1) Ibid, P.15.Texte : « Car ce n'est pas assez d'avoir l'esprit bon, mais le principal est de l'appliquer bien ».

(2) Ibid, P. 31. Texte: « Pour la logique ses syllogismes et la plupart de ses autres instructions servent plutôt à expliquer à autrui les choses qu ' on sait ou mème , comme l'art de Lulle ,à parler sans jugement de celles qu' on ignore, qu 'à les apprendre ».

(3) Ibid, P.32. Texte: « Au lieu de se grand nombre de préceptes dont la logique est composée, je crus que j'aurais assez des quatre suivants, pourvu que je prisse une ferme et constante résolution de ne manquer pas une seul fois à les observer ».

بهذا يمكن القول إن تأسيس طريقة العقلانية الديكارتية يعني إبعاد ورفض المعارف الظنية والاستجابة الصارمة لقاعدة الوضوح، وأولى القواعد الأربعة التي رتّبها ديكارت هي أن: «لا أقبل أبدا أي شيء على أساس أنه صحيح إذا لم أعرفه بكل وضوح على أنه كذلك»[1]. أي تجنب كل ارتجال أو تسرع في الأحكام والعمل بكل دقة على أن لا يقبل الشيء إلا إذا ظهر واضحا متميزا.

والقاعدة الثانية هي: «أن أقسّم كل مشكلة أريد فحصها إلى أكبر عدد ممكن ولازم من الأجزاء حتى تعالج معالجة جيدة»[2]. وهذا ما يمكن تسميته بعملية أو قاعدة التحليل؛ وهي قاعدة تقتضي أن تكون المشكلة المراد معالجتها مشكلة مستعصية عن الفهم المباشر لأن ما هو بديهي فهو واضح ومتميّز لا يحتاج إلى تحليل. ثم إن التحليل هو البحث عن العناصر البسيطة حتى تدرك بداهة عن طريق الحدس العقلي أو الاستدلال المرتكز على ما هو بديهي[3].

أما القاعدة الثالثة فهي: «أن أقود أفكاري بنظام، أبدأ بالأشياء التي تكون معرفتها أكثر يسراً وسهولة ثم الصعود شيئا فشيئا إلى غاية المعرفة الأكثر تركيباً، وأفرض النظام على تلك التي لم تكن منتظمة طبيعيا مع بعضها البعض»[4].

ولعل هذه القاعدة التي تعرف بقاعدة التأليف أو التركيب أهميتها تكمن في أنها هي التي تجعل النتائج مشروعة وذلك لأن النتائج لا تكون كذلك إلا إذا

---

(1) Ibid, P.32. Texte: «.. ne recevoir jamais aucune chose pour vraie que je la connusse évidemment être telle ».

(2) Ibid, P. 33. Texte: «.. de diviser chacune des difficultés que j'examinerais en tant de parcelles qu'il se pourrait et qu'il serait requis pour les mieux résoudre ».

(3) أنظر: مهدي فضل الله ،فلسفة ديكارت ومنهجه، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1983.ص109.

(4) Ibid, P.33. Texte: «.. de faire partout des dénombrements si entiers et des revue si générales que je fusse assuré de ne rien omettre ».

انتظمت من البسيط إلى المركب وكانت لازمة لزوماً ضرورياً عن بعضها البعض وفي كل مرحلة من مراحل التركيب.

وأما القاعدة الرابعة والأخيرة والتي تعرف بقاعدة الإحصاء، فهي أن: «أقوم بإحصاءات تامة ومراجعات عامة تجعلني أطمئن إلى أنني لم أهمل أي شيء من عملياتي هذه»[1]. وهذه القاعدة تدعونا إلى أن نتثبت من صحة كل عمل تمّ ونسد كل طرق الريب وأن نستوثق من أننا لم نغفل أي جزء من أجزاء المشكلة المراد فحصها أو معالجتها. هذه الطريقة المحكمة والواضحة جعلت العقل الديكارتي يخلص إلى أن كل عمل علمي عليه أن يتّبع طريقا يبدأ من المفاهيم الأكثر بساطة، «الواضحة والبيّنة»، ثم وبطريقة استنباطية متلاحمة، ينتقل إلى المفاهيم الأكثر تركيباً وتكون لازمة لزوماً ضرورياً عن الأولى. ولعل هذا الذي دفع بديكارت إلى أن يشهد بأن علم الرياضيات وخاصة الهندسة منه، بعمله الاستنباطي و«وضوح أفكاره»، يقدّم النموذج المنهجي القابل لأن يطبّق في كل مجالات المعرفة، ومن ثم أخذ على عاتقه أن يطبّق هذه الطريقة على مسائل باقي العلوم الأخرى. ولما كانت مبادئها مستمدة من الفلسفة التي لم يعثر فيها بعد على أي حقيقة، فكّر في أن يقوم بهذا العمل الفلسفي قبل أي عمل آخر لكن في سن يكون فيه أكثر نضجاً من سن هذه المرحلة لأنه رأى فيه العمل الأكثر أهمية في الحياة العلمية ومخاوف السقوط في الأحكام المتسرعة أو المتحيزة فيه في هذه المرحلة من حياته تكون أكبر.

(1) Descartes R. , Discours de la méthode, P.33. Texte: «..de conduire par ordre mes pensées en commençant par les objets les plus simples et les plus aisés à connaître, pour monter peu à peu comme par degrés jusqu'à la connaissance des plus composés: et supposant même de l'ordre entre ceux qui ne précèdent point naturellement les uns les autres ».

ولما بلغ هذه المرحلة من التفكير (مرحلة سن النضج) يكون العقل الديكارتي قد بلغ مرحلة حاسمة وهامة جدا لأنها كانت المرحلة التي كشف فيها عن الحقيقة الفلسفية الواضحة والمتميّزة وكانت القاعدة الصلبة التي من دونها لا يمكن إعطاء أي ضمان أو مشروعية للحقائق المتفرعة عن مبادئها.

وللوصول إلى هذه القاعدة الصلبة المتمثلة في أولى الحقائق التي تؤسس للفلسفة التي يبحث عنها ديكارت – وقد أدرك أن الطريقة المكتشفة هي السبيل الأنجع لكشف الحقائق بما في ذلك حقائق الميتافيزيقا–كان على ديكارت أن يردّ كل شيء انتابه شك فيه، فقال: «أعتبر كل شيء راودني فيه أدنى شك خاطئاً وهذا حتى أتبيّن إذا ما كان في الأخير سيبقى شيء لا يقبل الشك»[1].

وقد استعاد ديكارت حجج مذهب الشكاك ليشك في جميع المعارف الموروثة وفي جميع الوسائل المنتجة لتلك المعارف. فشك في الحواس و لم يطمئن لحقائقها لأنه: «كل ما تلقيته [كما يقول] حتى الآن على أنه أصدق الأمور وأوثقها قد اكتسبته من الحواس أو عن طريق الحواس غير أني وجدت في بعض الأوقات الحواس تخدعني ومن الحكمة أن لا نطمئن أبداً كل الاطمئنان إلى من سبق وأن خدعنا مرة»[2].

(1) Ibid,P.47. Texte: «.. et que je rejetasse comme absolument faux tout ce en quoi je pourrais imaginer le moindre doute afin de voir s'il ne resterait point après cela quelque chose en ma créance qu'il fut entièrement indubitable ».

(2) Descartes R. , Méditations métaphysiques, Librairie générale française,Paris,1990,P.30.Texte : « Tout ce que j'ai reçu jusqu'à présent pour le plus vrai , et assuré, je l'ai appris des sens , ou par les sens ,or j 'ai quelquefois éprouvé que ses sens étaient trempeurs , et il est de la prudence de ne se fier jamais entièrement à ceux qui nous ont une fois trompés ».

ومن الشك في الحواس وعدم الاطمئنان لها ينتقل ديكارت إلى الشك في المعقولات، وهذا بالرغم من أنه كان يثق في يقين الرياضيات إلا أن نهجه الشكي الذي صار بمثابة وسيلة بحث عن الحقيقة الفلسفية الأولى جعله يعدل عن يقينها، وكذا الأمر بالنسبة للهندسة التي شكك فيها بعد أن كانت السبيل القائم على البداهة والوضوح واليقين. كل هذه العمليات العقلية التي تبدو ثابتة ومجردة لم تعد فجأة كذلك بسبب أن ديكارت لاحظ أن البشر يخطئون في استدلالات العقل الرياضية وقد يختلفون في أبسط العمليات منها. فالمفاهيم البسيطة التي هي بمثابة حقائق العقل البشري التي يجب أن لا يشك فيها عاقل افترض ديكارت عدم صحتها لأننا إذا فصلنا العقل عن الوجود فلا ضامن لنا أن خمسة (5) هي نتيجة جمع ثلاثة (3) واثنين (2)، ومن هنا، فمع أن الحساب والهندسة وما شاكلهما من العلوم تحتوي على شيء يقيني لا سبيل إلى الشك فيه، نجد ديكارت يقول: «مع ذلك فقد رسخ في ذهني (...) أن هناك إلهاً قادراً على كل شيء (...) ثم لما كنت أرى أحياناً، كيف أن الآخرين يغلطون في الأمور التي يحسبون أنهم يدركونها بأكثر يقين، فلعله أراد لي أن أغلط أيضا كلّما جمعت اثنين (2) وثلاثة (3) (...) ومع ذلك فأنا لا أشك في أنه لا يأذن بذلك»[1].

والفكرة نفسها نجدها تتكرر مع ديكارت في موضع آخر، وبمزيد من الشك، إذ يقول: «حتى في الأشياء التي نظن أننا على بيّنة منها فإنه مادام قد سمح بأن نضل في الأحيان، كما علمنا من ملاحظة الواقع، فلم لا يستطيع أن يسمح

(1) Ibid, PP. 38-40. Texte: « Toutefois il y'a longtemps que j'ai dans mon esprit (…), qu'il y'a un Dieu qui peut tout. (…) Et même comme je juge quelquefois que les autres se méprennent, même dans les choses qu'ils pensent savoir avec le plus de certitude il se peut faire qu'il ait voulu que je me trompe toutes les fois que je fais l'addition de deux et de trois, (…) et néanmoins je me puis douter qu ' il ne le permette ».

بأن نضل على الدوام»[1]، بل وقد سبق وأن عرضها في صورة قريبة من هذه في كتابه (طريقة في المنهج) حيث قال: «لما وجدت أن هناك رجالاً يخطئون في استدلالاتهم، حتى في أبسط مسائل الهندسة ويأتون فيها بالمغالطات وإني كنت عرضة للزلل في ذلك كغيري من الناس اعتبرت باطلاً كل استدلال كنت أحسبه من قبل برهاناً صادقاً»[2].

وبينما نجد العقل الديكارتي قد استعاد حجج مذهب الريبيين وشك في كل شيء فإذا بحقيقة أولى مطلقة مقاومة لكل شك تجعله يتجاوز طروحات هذا المذهب، إنها حقيقة: «أنا أفكر أنا موجود». وهي الحقيقة التي تصير مع ديكارت الأساس والمبدأ الأول لكل معرفة. فكيف برزت هذه الحقيقة المطلقة إلى الوجود؟

وللإجابة على هذا السؤال وجدنا العقل الديكارتي يصرح قائلاً: «ولكن، وعلى الفور [أي عقب الشك]، انتبهت، وأنا أفكر في أن كل شيء كان خاطئاً، إلى أنه يجب ضرورة أن (أنا)، الذي يفكر في هذا، يمثل شيئاً ما: ولاحظت أن هذه الحقيقة «أنا أفكر إذن أنا موجود» هي غاية في الإحكام والضمان بحيث لا يمكن لأغرب فرضيات الشكاك أن تزعزعها»[3].

---

(1) ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، 1993،ص55.

(2) Descartes R., Discours de la méthode, PP.47-48. Texte: « Et pource qu'il y'a des hommes qui se méprennent en raisonnant, même touchant les plus simple matières de géométrie, et y font les paralogismes, jugeant que j'étais sujet a faillir autant qu'aucun autre, je rejetai comme fausses tous les raisons que j'avais prises auparavant pour démonstrations ».

(3) Ibid, P.48. Texte: « Mais aussitôt après je pris garde que, pendant que je voulais ainsi penser que tout était faux ,il fallait nécessairement que moi , qui le pensais, fusse quelque chose :et remarquant que cette vérité, je pense, donc je suis, était si ferme et si assurée que toutes les plus extravagantes suppositions des sceptiques n'étaient pas capables de l'ébranler ».

ولما تبيّن لديكارت أن هذه الحقيقة هي غاية في الوضوح والبساطة والتميّز أضاف قائلاً: «حكمت بأنني أقدر، مطمئناً، أن أتخذها مبدأ أولياً للفلسفة التي كنت أبحث عنها»[1].

وقد تعرض ديكارت للفكرة نفسها أيضا في كتابه (مبادئ الفلسفة) ولاحظ أنه: «مما تأباه عقولنا أن نتصور أن ما يفكر لا يكون موجوداً حقاً حينما يفكر»[2]. ومعناه أننا عندما نشك في جميع الأشياء فإننا لا نستطيع أن نفترض أننا غير موجودين. من هنا وجد ديكارت يقينا أن الشك يستلزم الشك الذي هو نوع من التفكير أو نوع من التفكير الذي لا يمكن أن يشك فيه أي أنه لا يمكن أن يشك في كونه يشك.. في كونه يفكر. وهذا النوع من التفكير الضيّق أي التفكير في التفكير يقتضي ضرورة الوجود، أي :"وجود كائن مفكر، وحتى هذه اللحظة لا نعرف وجودا سواه ولهذا كان ديكارت أبا المثالية الحديثة فهو يبدأ من الفكر وينتهي إلى الفكر، كما يقول (هاملان) Hamelin O.(1856-1907)» [3]. ومن حينها صارت هذه الحقيقة التي عرفت بالكوجيتو (cogito) معياراً للأفكار الواضحة المتميّزة وممهدا للتمييز فيما بعد بين ما هو روحي وما هو مادي، وممهدا للبرهان على وجود الإله، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه (نظرية الحقيقية الديكارتية) أي أن الحقيقة صفة لكل فكرة أو لكل شيء واضح ومتميّز[4].

---

(1) Ibid, P.48. Texte: « je jugeai que je pouvais la recevoir sans scrupule pour le premier principe de la philosophie que je cherchais ».

(2) ديكارت، مبادئ الفلسفة، ص56.

(3) جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارت، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة د/فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968، ص9.

(4) Voir : Descartes R. , Discours de la méthode, P.49.

ولما ثبت لدى ديكارت وجود «الأنا المفكرة» يكون قد ثبت لديه أن النفس تفكر دائماً، لأن «الأنا المفكرة» توجد بعدد ما تتكرر فيها عبارة «أنا أفكر، أنا موجود». ولما صار وجود «الأنا» لا يتحقق إلا بمثل هذه الطريقة، قلنا إن الفكر لا يتوقف في «الأنا» مطلقاً وهذا الذي عبّر عنه ديكارت بقوله: «إن النفس تفكر دائماً»[1] أي أن وجودها مرهون بماهيتها أو قل إن الماهية تقتضي الوجود أي أن الإنسان لما لم يكن في مقدوره أن يوقف تفكيره في الوقت الذي أمكنه أن يتصور عدمية الجسم أو العالم الخارجي من حوله، أدرك بكل وضوح وجلاء وجود ماهيته المفكرة، وهذا يعني أيضاً أن هذه الماهية، النفس المفكرة، هي حقيقة متميّزة كل التميّز عن الجسم الذي هو محل لها، وهي حقيقة كان قد أشار إليها ديكارت حين قال: «عرفت من هذا [أي من عدم إمكان توقف تفكيري] بأنني جوهر ماهيته أو طبيعته التفكير، ووجوده لا يحتاج إلى أي محل ولا هو متعلق بأي شيء مادي، بحيث أن هذا الأنا أي الروح التي بها أنا موجود على الشكل الذي أنا عليه هي متميّزة كلية عن الجسم وأفضل منه معرفة»[2].

وإلى حلقات سلسلة هذه الحقائق المكتشفة، يضيف العقل الديكارتي حلقة أخرى ضرورية وذلك أنه لما كان يتأمل في الأشياء التي كان يشك فيها،انتبه إلى أنه بفعله هذا إنما هو يؤكد وجوده الناقص لأنه رأى أن الكمال المطلق هو أن تعرف لا أن تشك. ومن هنا أخذ ديكارت يبحث من أين جاءته فكرة التفكير في شيء هو أكثر كمال مما هو عليه، فأدرك وبكل وضوح أنها جاءته من طبيعة

(1) et(2) Ibid ,PP.48-49. Texte: « je connus de la que j'étais une substance dont toute l'essence ou la nature n'est que de penser, et qui pour être n'a besoin d'aucun lieu ni ne dépend d'aucune chose matérielle, en sorte que ce moi, c'est-à-dire l'âme par la quelle je suis ce que je suis ,est entièrement distincte du corps ,et mème qu'elle est plus aisée à connaître que lui ».

هي، بالطبع، أكثر كمال منه. فبالنسبة للأفكار التي كوّنها عن الأشياء المادية الخارجة عن ذاته مثلاً لم يجهد فكره في البحث عن مصدرها لأنها لا تملك شيئاً يجعلها أسمى منه بل إذا كانت هي حقائق قائمة فذلك راجع إلى (أناه المفكرة) التي تملك بعض الكمال وإلا هي راجعة إلى العدم أي أنها كانت موجودة في (أناه) لما فيه من نقصان. ولكن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك بالنسبة لفكرة الموجود الذي هو أكثر كمالا من (أناه): لأن امتلاكها من العدم أمر يستحيله العقل السليم.. ولا من (أناه) لأن الكامل لا يمكن أن يتوقف عن الأقل كمالاً ومن ثم فلا يمكن أن تكون قد وضعت في (أناه) إلا بواسطة طبيعة تكون أكثر كمالا منه بل وتكون مصدراً لكل الكمالات التي يمكن أن يتصوّرها، هذه الطبيعة هي الإله[1].ومنه ففكرة الكمال تقتضي فكرة الوجود وذلك لأن الكائن الكامل هو الكائن الموجود فعلاً وإلا كان هناك تناقض بين معنى الكمال والوجود وكان هذا الكائن، تبعا لذلك،كائناً ناقصاً؛ وهذا دليل عرف بالدليل الأنطولوجي.

وهناك دليل آخر على وجود الإله القائم على حقيقة (الكوجيتو) (cogito) بل قل على (الدوبيتو) (dobito) الديكارتي في صيغته الأولى «أنا أشك». فمن شكه تولد شعوره بالنقص الذي ولّد بدوره حقيقة أخرى واضحة هي وجود الإله. ويمكن ضبط الصورة المنطقية لهذه السلسلة في الشكل المنطقي الاستنباطي الآتي: أنا أشك، إذن أنا ناقص، إذن لديّ فكرة الكامل، إذن فالكامل موجود. وهذا البرهان الذي يقدّمه ديكارت على وجود الإله يعرضه أحياناً في صورة مضمرة قائلاً: أنا أشك فالإله موجود[2]. ومن هنا نفهم أيضا ضرورة الإله عند

(1) Voir :Descartes R., Discours de la méthode ,PP.49-50. Voir aussi : Méditations métaphysiques, P.116 et ce qui suit.

(2) تجدر الإشارة هنا إلى أن ديكارت قدّم ثلاث أدلة عقلية تثبت وجود الإله وهي:
1- دليل الكمال. 2- الدليل الأنطولوجي. 3- دليل الخلق المستمر، وهو قريب من الثاني ومكمل له.

ديكارت كضامن لمعارفنا، لأنه لولا يقينه بوجود الإله لبقي حبيس (الكوجيتو) يعرف نفسه ولا يعرف شيئا آخر، ولهذا قال ديكارت: «.. قبل أن أعرف الإله لم يكن في استطاعتي أن أعرف أي شيء آخر معرفة كاملة، والآن وقد عرفته، صار في وسعي أن أعرف الكثير من الأشياء معرفة كاملة، ليس فقط تلك التي تتعلق بالإله بل والتي تتعلق أيضا بالطبيعة الجسمانية»[1]. وهذا هو الذي كان وراء كشف «الحقائق الأبدية» المعروضة في رسالته التي بعث بها إلى (مارسان) Mersenne في عام 1630م، ومؤداها أن كل أنواع الحقيقة تتوقف على الإله وليس العكس، فهو الخالق والضامن لها.

وخلاصة القول: إن ما توصل إليه ديكارت من إثباتات دقيقة يعود إلى عقلانية أنتجها شك منهجي قوامها التفكير أو العقل الفطري المتمثل في الحدس الفوري الذي سمح له بإدراك حقائق جاءت متوالية إذ بعد أن حدس أو كشف أولى الحقائق أو قل أولى البديهيات الفطرية انتقل فيما بعد إلى إدراك حقائق أخرى: فمن حقيقة الفكر (الشك) إلى الفكر ثم إلى النفس الإنسانية ثم إلى الموجود المطلق الكامل ثم إلى العالم الخارجي.. إنها عقلانية يمكن أن نصفها بالمحكمة لأنها تعكس منظومة فكرية متدرجة يتم فيها توليد الأفكار انطلاقا من حقائق بديهية حدسية واضحة تنبثق من نور العقل الفطري وبعيدة عن كل تجربة- وهذا لا يعني أنها تستبعد التجربة-، وبعبارة أخرى فهي عقلانية تقوم أساسا على أسبقية الفكر على المادة لما يحتويه من حقائق أبدية مصدرها الإله إذ العقل هو

(1) Descartes R. , Méditations métaphysiques ,PP.198-200.
Texte: « qu'avant que je le connaisse je ne pouvais savoir parfaitement aucune autre chose.Et à présent que je le connais ,j'ai le moyen d'acquérir une science parfaite touchant une infinité de choses non seulement de celles qui sont en lui ,mais aussi de celles qui appartiennent à la nature corporelle ».

الذي يكتشف اليقين وذلك بواسطة المنهج الرياضي الذي جمع أساسا بين طريقتين سليمتين في التفكير هما الحدس والاستنباط:

فأما الحدس فهو عمل عقلي يمكننا من الإدراك بطريقة مباشرة، دفعة واحدة وفي زمن واحد فهو: «يبصرنا مباشرة بالطبائع البسيطة»[1] وذلك كقولنا النصف أصغر من الكل.

فالمعرفة الحدسية إذن هي المعرفة البديهية الواضحة بذاتها إذ تستمد شرعيتها من ذاتها وبذاتها، وهي في غنى عن كل برهان أو دليل معقّد يحقّقها[2]. فهي تتولد من العقل السليم ذي البصيرة الحية التي ترى حقيقة الشيء وماهيته بسبب بساطته وجلائه، وتتجنب في ذلك كل ما قد يزيغها عن هذه الحقيقة الأولية كتأثيرات الحس والأوهام وما إلى ذلك من المضللات فهي «طبائع بسيطة»[3] لا تحتاج إلى نظر.

وأما الاستنباط فهو نوع من الاستدلال الرياضي يبدأ بفكرة رياضية أولية بديهية حدسية ليصل إلى اكتشاف حقائق جديدة كانت مجهولة من قبل أي استنتاج تركيبي، فهو كما يقول ديكارت: «..أبدأ بالأشياء الأكثر بساطة

---

(1) يوسف الحاج، رينه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة، دار مكتبة الحياة بيروت، بدون تاريخ، ص51.

(2) يرى المناطقة اليوم أن مثل هذه الحقيقة ليست مطلقة وذلك لأن قضية واحدة بذاتها قد تكون بديهية في نسق ومبرهنة في نسق آخر وعليه فلا معنى للقول أن قضية ما بديهية أو مبرهنة إلا ضمن نسق معين، وإن اعتقد البعض أن البديهيات بيّنة بذاتها فذلك لأنهم لم يشكوا بصدقها. أنظر: كريم متى،المنطق الرياضي ص132-133.

(3) أنظر: لويس جنفياف روديس، ديكارت والعقلانية، ترجمة عبده الحلوط، منشورات عويدات، بيروت، 1985م، ص20-21.

والأكثر سهولة ولا أنتقل إلى أخرى إلا إذا تبيّن لي أن الأولى لم تعد ترغبني في شيء أو بعبارة أخرى إلا إذا ظهرت لي الأولى واضحة متميّزة»[1].

وبناء على هذا يمكن القول: إن الحدس يؤسس للحقيقة ويضفي عليها روح الشرعية العلمية والاستنباط يوسع مجالها.

وفي ختام هذا الفصل، فالشيء الذي يمكن أن نذكّر به ونؤكد على أهميته هو تلك الحقائق الفطرية الموضوعة في العقل والتي من دونها –حتى لمن يدّعي أن المعرفة مصدرها التجربة– لا يمكن للإنسان أن يكون إنسانا عارفا متمدنا ومدركاً لأصل وسبب وغاية وجوده: ﴿**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ [2].

(1) Descartes R., Regles pour la direction de l'esprit , Traduction J.sirven, Librairie philosophique J. Vrin, Paris , 1932,P.28. Texte:"..débutant toujours par les objets les plus simples et les plus faciles , je ne passe jamais à d'autres sans qu'il me semble que les premiers ne me laissent plus rien à désirer ".

(2) القرآن الكريم، سورة الذاريات، الآية: 21.